البَابُ الرَّابِعُ

التوقيعات

أ- تمهيد

قبل أن يسرد أحمدُ بن محمَّد بن عبد ربه نموذجاتٍ من التوقيعات تحدث عن الإيجاز، وعدَّه أشرفَ من الإطناب، وأيَّد كلامه بأدلة وحجج قَبَس بعضها من كلام العرب، وبعضَها من الحديث النبويّ، وبعضَها من أدب الفرس. حتى كأنَّ الإيجاز فضيلة من فضائل الشاعر والخطيب والمتكلّم والمترسّل. أو كأنَّ الإسهاب رذيلةٌ يحسن التبرُّؤ منها.

قال ابن عبد ربه[1]: «كان بعضُ الصحابة يقول: أعوذُ بالله من الإسهاب. قيل له: وما الإسهابُ؟ قال: المُسْهِبُ الذي يتخلَّلُ بلسانه تخلُّل الباقر، ويشول به شولانَ الروق. وقال النبي ﷺ: أَبْغَضُكُم إليَّ الثرثارون المتشدِّقون، يريُد أهل الإكثار والتقعير في الكلام». وقال ابن عبد ربّه[2]: «قال أبرويز لكاتبه: اجمع الكثير ممّا تريد من المعنى في القليل ممَّا تقول. يحضُّه على الإيجاز، وينهاه عن الإكثار في كتبه».

ثم استمدَّ من النحو والصرف علَّةً سوَّغَ بها إيثار الإيجاز على الإسهاب،

(١) العقد الفريد ٤/ ١٥٥.

(٢) المصدر السابق ٤/ ١٥٥.

فحواها أن الإنسان نزَّاعٌ بفطرته إلى الراحة. وممَّا يُريح اللسانَ أن يتخفَّف من الثقالة مهما تُمْعن في الضآلة. قال ابن عبد ربه[(١)]: «تحبُّ العربُ التخفيفَ والحذف، ولهربها من التثقيل والتطويل كان قَصْرُ الممدود أحبَّ إليها من مَدِّ المقصور، وتسكينُ المتحرِّك أخفَّ عليها من تحريك الساكن، لأن الحركةَ عملٌ، والسكون راحة».

قد تقول: ما التوقيعات؟ وما علاقتها بالإيجاز والإكثار، والعرب والفرس، والنحو والصرف؟

ب- التوقيعات في اللغة والاصطلاح

لم نقع فيما بين أيدينا من كتب اللغة والأدب والنقد على تعريف جامع مانع، يحدُّ هذا اللونَ الطريفَ من ألوان الترسُّل بحدّ يميزه من سواه. كأنّ عيونَ النقاد اقتحمته لضآلته، فلم توفِّه حقَّه من التعريف، أو كأنَّ الأدباءَ عدُّوه ذيلاً لفنِّ الترسُّل، يُكْتفَى بذكره على سبيل التظرُّف والتملُّح، ولا يُدْرَس، لأنه أقلُّ من أن يُعَدَّ جنساً من أجناس الأدب.

قال ابن منظور: «التوقيع إصابةُ المطر بعضَ الأرض... قال الليث: إذا أصاب الأرض مطرٌ متفرّق، أصاب وأخطأ، فذلك توقيعٌ في نبتها. والتوقيعُ في الكتاب: إلحاق شيء فيه بعد الفراغ منه. وقيل: هو مشتقٌّ من التوقيع الذي هو مخالفةُ الثاني للأول. قال الأزهري: توقيعُ الكاتب في الكتاب المكتوب أن يُجمل بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة، ويحذف الفضول».

إن كل ما يمكن أن يخرج به القارئ من «لسان العرب» هو أن التوقيع ضربٌ من الاختصار والإلحاق، قد يكون مخالفاً لمضمون ما اختُصِر منه، أو ما أُلحق به، وقد يكون تكميلاً له وتذييلاً. وشرطُه الأوَّل في الحالين الإيجازُ وحذفُ الفضول. هذا شأنهُ عند أهل اللغة. فكيف فهمه أهلُ الأدب والنقد وأفهموه؟ قال ابنُ عبد ربه[(٢)]: «نحن قائلون، بعون الله وتوفيقه، في التوقيعات... إذْ كان أشرف الكلام حُسْناً، وأرفعهُ قَدْراً، وأعظمُه من القلوب

(١) المصدر السابق ٤/ ١٥٦.

(٢) المصدر السابق ٤/ ١٥٥. وانظر ما ذكره القلقشندي في صبح الأعشى ١/ ٥٢ وما بعد.

موقعاً، وأقلُّه على اللسان عملاً ما دلَّ بعضُه على كلِّه، وكفى قليلُه عن كثيرِه، وشهد ظاهرُه على باطنه. وذلك أن تقلَّ حروفُه، وتكثرَ معانيه».

قد تقول- وقولك حقٌّ- ليس فيما قبسْتَ من العقد الفريد ما يعرِّف مجهولاً، ويقرِّب بعيداً، أو ما يصف التوقيعات بصفات تميزها من الحِكَم، والأمثال السائرة، وجوامع الكلم، وكلِّ كلام موجز، قلَّت ألفاظه، وكثرت معانيه. إنَّ كلَّ ما فيه عنوانٌ بلا بيان، واسمٌ بلا وسم، وإطراء للإيجاز يصدُق على المنظوم والمنثور، لا يخصُّ التوقيعات. لو مضيت في القراءة، وأَتيتَ على الفصل الذي سمَّاه ابنُ عبد ربه (كتاب التوقيعات..) لما وجدت في الفقرات اللاحقة ما افتقدْت في السابقة. بل وجدته يُبْدئُ ويعيد في إطراء الإيجاز، فيقول[1]: «ربّ إشارة أبلغُ من لفظ، ليس أن الإشارة تبيِّنُ ما لا يبيِّنه الكلام، وتبلغُ ما يقصر عنه اللسان، ولكنها إذا قامت مَقام اللفظ، وسدَّت مَسدَّ الكلام، كانت أبلغَ، لقلّة مؤونتها وخفَّة مَحْملها». ويقول أيضاً: «وفي كلام العرب الاختصارُ والإطنابُ، والاختصارُ عندهم أحمدُ في الجملة، وإن كان للإطناب موضعٌ، لا يصلح إلّا له. وقد تومئُ إلى الشيء، فتستغني عن التفسير بالإيماءة، كما قالوا: لمحةٌ دالةٌ».

إن الفقرات التي وردت في العقد الفريد - والعقد من أبرز الكتب التي تحدثت عن التوقيعات - لم تستطع بلمحاتها الدالة أن تعرّفك من التوقيعات إلّا سمة واحدة، وهي الإيجاز. والإيجاز لا يميز هذا الجنس الأدبي من سواه. فإن أبيت إلّا أن تتكلَّف تعريفاً يحدّها، أو أن تكلّفنا صياغة تعريف، فلنقل على سبيل التقريب لا التحديد: التوقيعاتُ تعليقاتٌ أدبيةٌ نثرية أو شعرية، يستعيرُها معلِّقوها من التراث، أو يصوغونها بمواهبهم صياغةً مركزةً مختصرة، فيجعلونها موجزةَ الألفاظ غايةَ الإيجاز، محكمة المعاني غايةَ الإحكام، لا يزيدُ أطولها على آية، أو بيت، أو مثل، أو سطر، ويوفِّرون لها عمق الفكرة، وجمالَ العبارة، ودقةَ التسديد وإصابة المقتل، ليردُّوا بها على ما يَردهم من رسائل مطوَّلة، فتأتي الردودُ في أغلب الأحيان مُبكِّتةً مُسْكِتة، ومقنعة ممتعة، قد أُوتيتْ من الرشاقة مثلَ ما أُوتيتْ من الحكمة. وإذا أحببت أن تقرن التوقيعات

(١) المصدر السابق ٤/ ١٥٥.

بما يناظرها أو يقاربها من رسائل العصر الحديث، فاقرنها «بالبرقيات». غير أن «البرقية» قد تكون ردّاً على رسالة، وقد لا تكون، والتوقيعةُ لا تكون إلا ردّاً على رسالة سبقتها، أو اقتضتها. ولك أن تقرنها كذلك بالتعليقات والحواشي التي يُذيِّل بها الرؤساء والوزراء ما يرفعه إليهم ذوو الحاجات من رقاع يلتمسون بها منفعة، أو يشتكون مظلمة.

جـ- أصحاب التوقيعات

من التوقيعات التي تحدَّرت إلينا من العصر الأموي يمكنُ أن نستنبط أن الموقِّعين كانوا من علية القوم. ولم يكونوا من عامَّتهم، إذ كان أكثرهم من الخلفاء والوُلاة والقادة وأولي الأمر في الدولة. ويمكن أن نعلِّل دوران هذا الفنّ في هذا الفلك بعلل:

أُولاها أن التَّوْقيعات كانت ذيولاً أو ردوداً على رسائل رسمية ذواتِ خطر أرسلها أعيانٌ ذوو شأن إلى من يبزونهم في المكانة والسلطة. والرسائلُ ذواتُ الخطر لا ترسل من سوقة إلى سوقة؛ بل من الأمراء والأعلام والسَّراة إلى الخلفاء والحكّام والولاة، أو من السوقة إلى الولاة لأن أكنافهم موطأة، وأبوابهم مفتوحة، ووصول الرسائل إليهم ميسَّر، ومع ذلك فإن طائفة من رسائل التَظلم رفعت إلى الخلفاء، فقضوا فيها بتوقيعاتهم المحكمة.

والثانيةُ أن أكثر التوقيعات عباراتٌ قصيرة تُمْلى على الكتَّاب بداهةً وارتجالاً، والكتَّاب من صنائع الخلفاء والأمراء وأتباعهم، ومن القائمين بكتابة الرسائل الرسمية، فهم يصدعون بما يؤمرون به من كتابة التوقيعات.

والثالثةُ أن التوقيعات بناتُ ذكاء ودهاء، وثمراتُ ثقافة ورهافة، ونتاجُ مواهب فطرية لا يُحسنها إلّا أصحابُ الفصاحة واللسن، ومَنْ أُوتوا مواهب، لا يمتلكها إلا خاصَّة الخاصة. أمَّا أغمار الناس وأغفالُهم، فلم يُؤْثر عنهم أنهم ركبوا هذا المركب الصعب، في التوقيع على رسائل تلقَّوها، بل اقتصرت مشاركتُهم على الشكوى والتظلّم، والاستغاثة والانتجاع، برسائل يرفعونها إلى ولاة الأقاليم في أغلب الأحيان. ولهذا كثرت في العصر الأموي الرقاع المرسلة

إلى زياد ابن أبيه، ومَنْ كانوا في طبقته من الأمراء، ليمهروا هذه الرقاع بالقبول أو بالرفض، ولقبولهم أو رفضهم سلطان يعدل سلطان القضاء.

١ - توقيعات الخلفاء

إن ثلاث العلل التي علَّلنا بها دوران التوقيعات في فلك الدولة لا تعني أن الخلفاء كانوا على حظوظ متساوية من النجابة والبيان ليكونوا على حظوظٍ متساوية في التوقيع والتعليق. ولا تعني كذلك أنهم كانوا على درجة واحدة من الإحساس بفداحة التبعات التي ألقاها الحكمُ على ظهورهم ليجيبوا عن كلّ رسالة ترِد، أو مظلمة تُرْفع، أو عاثرٍ يبحث عن جابر.

لقد كان منهم الدُّهاة الفصحاء كمعاوية بن أبي سفيان، والهُداة الأتقياء كعمر بن عبد العزيز، وهؤلاء نهضوا بالعبء، واحتملوا التبعات، وتلقوا الرسائل بالعناية والشعور بالمسؤولية، وذيّلوها بالتوقيعات. وكان منهم مَنْ أوتي الذكاءَ والموهبة والفصاحة والبيان، ولم يُؤْتَ الإحساس الصادق بتبعات الحكم، كالوليد بن يزيد، فشغلته المباذلُ عن الرسائل، والشهوات عن التوقيعات، فأفرغ بيانه في الشعر العابث، ولم يُفرغ بيانه في التوقيعات الجادَّة.

أ) توقيعات معاوية

برع معاوية بن أبي سفيان في التعليق على الرسائل براعته في الخطب والجدال، وحفظت كتب الأخبار والأدب طائفة من توقيعاته، وإليك بعضَها:

- وردت إليه رسالةُ عتاب من عبد الله بن عامر [ت: ٥٩هـ] وعامرٌ هذا أميرٌ أموي شجاع، جدُّه حبيبُ بنُ عبد شمس، ولَّاه عثمانُ البصرة، فأرسل جيوشاً إلى الشرق فتحت كثيراً من أقاليم العجم، ثم عزله معاوية عنها. ويبدو أن العزل غمَّه، فأنفذَ إلى معاوية كتاباً يذكّره جهادَه وشرفَه، فوقَّع عليه معاوية:

«بيتُ أمية في الجاهلية أشرفُ من بيت حبيب. فأمَّا في الإسلام فأنت تراه»[1].

(١) العقد الفريد ٤/٢٠٦.

- وفي رسالةٍ أخرى سأل عبدُ الله بن عامر معاوية أن يُقْطِعَه مالاً بالطائف. فوقع معاويةُ على الرسالة بمثل عربيّ معروف، يُفْهم منه أن معاويةَ يرمي عبدَ الله بالقِحة في السؤال، والطمعِ في المال، إذْ قال:
«عِشْ رجَباً تَرَ عجباً»[(١)].

- كتب زياد ابن أبيه إلى معاوية كتاباً، ينمُّ به على عبدِ الله بن عباس، ليوغر عليه صدره، مدَّعياً أن ابن عباسٍ طَعَن في خلافته. وأبو الفضل العبَّاسُ بنُ عبد المطلب [ت: ٣٢هـ] كان من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام. قال الرواةُ في إطرائه: كان سديدَ الرأي، عظيمَ الكرم،يكره الرقَّ، اشترى سبعين عبداً وأعتقهم. فكيف يطاوله زياد ابن أبيه، وهو فقعةٌ في قاع، مغموز النسب، لم يكن له شأن ولا وزن قبل أن يلصقه معاويةُ ببني أمية؟ وقَّعَ معاويةُ على الكتاب بقوله:

«إن أبا سفيان وأبا الفضل كانا في الجاهلية في مِسْلاخٍ واحد. وذلك حلفٌ لا يحله سوءُ أدبك»[(٢)].

- ولعل أجمل توقيعات معاوية، وأحفلها بالسخر والظرف ما كتبه على كتابٍ بعث إليه به من البصرة ربيعةُ بن عسل اليربوعي، يسألهُ فيه أن يُعينه في بناء دارهِ بالبصرة باثني عشر ألف جذع، فكتب معاوية على الرسالة:
«أدارُك في البصرة، أم البصرةُ في دارك؟»[(٣)].

ب) توقيعات يزيد بن معاوية

حاول يزيد بن معاوية أن يسلك مسلكَ أبيه في التوقيع على طائفة من الرسائل، فنحا نَحْوَه، ولم يُدْرك شَأْوَه، فقد قاربه في جمال التعبير، وإصابة الغرض، وتخلَّف عنه في الحِلم، وسَعَة الصدر، فلم تبرأْ تعليقاتُه من الشماتة حيناً، ومن التعنيف حيناً آخر. وأسوأُ مَا كَتب شماتتُه بأهل المدينة في معركة الحرة.

---

(١) العقد الفريد ٤/ ٢٠٦، وذكر الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ١٦ وقال: يريد عش رجباً بعد رجب، ورجب هنا كناية عن السنة،كأنه قال: عش دهراً تر عجائب، أي: إن تعش تر.
(٢) العقد الفريد ٤/ ٢٠٦والمسلاخ: النخلة.
(٣) المصدر السابق.

- ولّى يزيدُ مسلمَ بنَ عُقْبة المرّيّ [ت: ٦٣هـ] قيادة الجيش الذي أرسله للانتقام من أهل المدينة بعد أن أخرجوا عامله، فأعملَ السيفَ في بقية الصحابة وجلة التابعين، وأسرف في القتل والنهب، وتباهى بما اجترم في رسالةٍ بعثَ بها إلى يزيد، فتلقَّى يزيد الرسالة بالشماتة، ووقع عليها[1] بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.
- وتأخر مسلم بن زياد عامل يزيد على خراسان في إرسال الخراج، فذيَّل يزيد رسالة له بتوقيعةٍ يلومه فيها على تأخره، ويستعجله، وهذا نصّها:

  «قليل العتاب يحكم مرائر الأسباب، وكثيره يقطع أواخي الانتساب»[2].
- وفي الرد على كتاب من كتب زياد ابن أبيه وقّع يزيد توقيعةً، يقرّ فيها بانتساب زياد ومعاوية إلى أبي سفيان، ويرمي بهذا الإقرار إلى حث عبيد الله على الإخلاص لبني أمية عامة، وله خاصَّة. فيقول:

  «أنت أحدُ أعضاء ابنِ عمِّك، فاحرصْ أن تكون كلَّها»[3].

ج) توقيعات عبد الملك بن مروان

أُثِرتْ عن عبد الملك طائفةٌ من التوقيعات المحكمة، كتب أكثرها ردًّا على رسائل الحجاج بن يوسف لتعنيفه وتقريعه، وردعه عن التمادي في العَسْف، وزجره عن الوَلْغ في دماء الهاشميين.

- منها ما كتبه إليه محذِّراً إيّاه عاقبة الغضب الأرعن، لأن الحَرْبَ لا تشفي من الحَرَبَ، والحكَّ لا يُبْرِئُ من الجَرَبَ:

  «جنّبني دماءَ بني عبد المطلب، فليس فيها شفاءٌ من الحَرَبِ»[4].
- أرسل الحجَّاج إلى عبد الملك كتاباً، يشكو فيه من أحوال العراق، ومن عصيان أهله، ويصفُ ما يكابدهُ في ترويضهم، ويستأذنهُ في قتل كبارهم لتأديب صغارهم، والفتك بالأشراف لترويع الأوباش، فأجابه

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٠٧.

(٢) المصدر السابق، والمرائر ج مرير ومريرة: الحبال المفتولة على أكثر من طاقٍ.

(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٠٧.

(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٠٧، الحرب: الغضب.

عبد الملك بلسان السياسي المحنَّك، لا بسوط السوَّاق الحُطَم، فقال: «إنّ من يُمْنِ السائس أن يأتلِفَ به المختلفون، ومن شُؤْمه أن يَختلفَ به المؤتلفون»[١].

- ذكرنا قبلُ أن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث [قتل: ٨٥هـ] كان من قادة الحجاج الدهاة الأفذاذ، اتهمه الحجاج بالضعف والخوف، فثار به، وخلع طاعته وبيعة عبد الملك، ونذكر الآن أن عبد الملك قرعه بالتوقيع على رسالة له متمردة، فَكَتب في ذيلها البيت التالي:

فما بالُ من أسعى لأجبر عظمَه حفاظاً، وينوي من سَفَاهته كَسْري؟[٢]

د) توقيعات سليمان بن عبد الملك[٣]

كان سليمان بن عبد الملك يبغض قتيبة بن مسلم [قتل: ٩٦هـ] مع ما قاد قتيبة من جيوش، وفتح من أمصار، في خلافتي عبد الملك والوليد، فلما آل الحكم إليه جاهره بالعداوة، وقابل قتيبة العداوة بمثلها، وهدد سليمان بأن يستقل بما وراء النهر، وعلّق سليمان على رسائل التهديد بتوقيعات من القرآن ومن الشعر.

- وقع[٤] على إحدى هذه الرسائل بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢٠].
- ووقع[٥] على رسالة ثانية ببيت جرير المشهور:

زعم الفرزدقُ أَنْ سيقتلُ مِرْبعاً أبشرْ بطول سلامةٍ يا مِرْبَعُ

هـ) توقيعات عمر بن عبد العزيز[٦]

ربّما كان عمر بن عبد العزيز أشدَّ الخلفاء حرصاً على التوقيع بآي الذكر

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٠٧ والسائس: الرئيس وكل من يلي أمور الناس ويحسن القيام عليها.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٠٨.
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٠٨.
(٥) المصدر السابق٤/ ٢٠٨.
(٦) المصدر السابق ٤/ ٢٠٨.

الحكيم، لأنه كان يجدُ في معانيه من الأَحكام والإِحكام، وفي مبانيه من الإيجاز والإعجاز ما يُغنيه عن كلام البشر.

- وقَّع على رسالة أتتْه من عامل من عمّال الصدقة الأمناء، كان دميم الوجه، حسن السيرة، عادلاً بين الناس، بقوله عزَّ وجلَّ:
﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ [هود: ١١/ ٣١].

- ووقّع على رسالة وردته من واليه على البصرة عديٍّ بن أرطاة [قتل: ١٠٢هـ] معاتباً إياه في أمرٍ أُخِذَ عليه، بقوله:
إنَّ آخر آية أُنزلت: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨١].

- وكتب إليه عامله كتاباً يخبره فيه أنه اقتدى في أمر من أمور الإدارة بسيرة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - فعلَّق على الكتاب بقوله تعالى:
﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٠].

وإذا لم يوقِّع بآية من مُحْكَم الكتاب صاغ التوقيعات من معاني الوحي بمباني البشر، فجاءت كأنها أحكام فقهية، أو تشريعات دينية، ومنها:

- كتب إليه بعض عماله، يستأذنه في أن يصلحَ من بلده ما فسد، ويبنيَ ما انهدم، ويرمَّ ما تداعى، فوقع عمر على الكتاب بقوله:
«ابنِها بالعدل، ونقِّ طُرُقَها من الظلم».

- وأخبره واليه على العراق أن القومَ يتمرَّدون ويفسدون، ويشقُّون على الدولة عَصا الطاعة، ويستأذنه في معاقبتهم لتأديبهم قبل أن يستفحل الشرُّ. فوقَّع بقوله:
«ارضَ لهم ما ترضى لنفسك، وخُذْهم بجرائمهم بعدَ ذلك».

و) توقيعات هشام بن عبد الملك(١)

عُرف هشام بالحكمة في السياسة، والحزم في الإدارة، والإصغاءِ إلى النصح، والاعتبار بأقوال العلماء والحكماء، وبالترفُّق والصفح عن أشرافِ العرب، وتجلَّت مناقبُهُ تلك في توقيعاته، ومنها:

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٠٩-٢١٠.

- كتب إليه صاحبُ المدينة يُخبره أن أبناءَ الأنصار وثبوا به، ويستأذنه في تأديبهم ليحفظَ أمن البلد، فوقّع هشامٌ على الكتاب بقوله:
  «احفظْ فيهم رسولَ الله ﷺ، وهَبْهم له».
- وآمره صاحب العراق في أمر الخوارج، أيبطش بهم، أم يلاينهم؟ فوقع بقوله:
  «ضع سيفك في كلاب النار، وتقرب إلى الله بقتل الكفار».
- وكتب قوم كتاباً، بعثوا به إلى هشام، وضمنوه شكاتهم من عامل تعدّى عليهم فمهر الكتاب بقوله:
  «لنفوضنكم، فإني خصم دونكم».
- وشكا إليه قوم ظلم أميرهم، فأجابهم إجابة سياسي ماهر حازم بقوله:
  «إن صح ما ادعيتم عليه عزلناه وعاقبناه».

ز) توقيعات يزيد بن الوليد بن عبد الملك[1]

بويع له بالخلافة بعد أن قتلَ الوليدَ بنَ يزيد، وحاول أن يردَّ إلى الدولة الأموية هيبتَها بعدما أغرقها الوليدُ في الخمر والمجون. فحرَّم الغناءَ بقوله: «يا بني أمية، إياكم والغناءَ، فإنه ينقص الحياء، ويزيدُ في الشهوة، ويهدمُ المروءة، وإنهُ لينوبُ عن الخمر». وأظهر السلاح في المواسم والأعياد؛ قال عثمان بن أبي العاتكة: «أوَّلُ من خرج بالسلاح في العيدين يزيدُ بن الوليد. خرج يومئذٍ بين صفَّيْن من الخيل عليهم السلاح، من باب الحصن إلى المصلّى». ولعلَّه فعل ما فعل لإدراكه ما يهدِّد الدولة من خطر، وفي توقيعاته ما ينمُّ على هذا الإدراك.

- كان مروان بن محمد من قواد الوليد، فساءه أن يقتل يزيد ابنَ عمه ولو كان ماجناً لئلا يخرق في سور الأسرة الأموية خرقاً، يصعب رتقُه، فأرسل يلومه ويحرِّض عليه بعدما تردّد في بيعته، فمهر يزيدُ بعض رسائله بقوله:

«أراك تقدِّم رجلاً، وتؤخّر أخرى[2]، فإذا آتاك كتابي هذا فاعتمد على أيِّهما شئت».

---

(١) العقد الفريد ٤/ ٢١٠، تاريخ الخلفاء/ ٢٣٦.
(٢) كناية عن التردد والحيرة.

- وفي توقيعة أخرى قرَّع يزيد واليَ خراسان لغفلته عَمَّا يُكاد للأمويين، وعمَّا يُبيِّت لهم أبو مسلم الخراساني والمسوّدة من الثورة، فقال:

«نجم[١] أمرٌ أنت عنه نائمٌ، وما أراك منه أو منّي بسالم».

ح) توقيعات مروان بن محمد[٢]

كان مروان بن محمد - مع ما رماه به العباسيون - من أذكى الخلفاء الأمويين، وأشدِّهم حرصاً على سلامة الدولة. وأحزمهم إدارة، وأبعدهم نظراً، غير أنه تولّى الخلافة بعد أن اتسع الخرق، وتداعى البناء، فأعياهُ الرقعُ والرمُّ. وتوقيعاتُه تنمُّ على أنه لم يَفُتْهُ إدراكُ الخطر، وإنما شقَّ عليه تداركهُ.

- وقَّع على رسالة تلقّاها من أمير خراسان يزيد بن عمر بن هبيرة [قتل: ١٣٢هـ] توقيعة غاضبة، لعلَّها توقظه من غفلته، لكي يتلافى ما يهدِّدُه ويهدِّدُ الأمويين من أخطار المسوِّدة، فقال:

«الأمرُ مُضطرب، وأنت نائمٌ، وأنا ساهر».

- وقرَّعه في توقيعة أخرى بعدما هَزَمه قحطبةُ بن شبيب قائدُ أبي مسلم الخراساني في معركة على شاطئ الفرات، وفي هذه المعركة غرق ابن شبيب في النهر، وفاز المنهزمُ بالعار، فقال مروان:

«هذا والله الإدبارُ، وإلَّا، فمنْ رأى ميتاً هزَمَ حيّاً؟».

- وأرسل نصر بن سيار [ت: ١٣١هـ] والي الأمويين على مرو إلى مروان بن محمد رسالة يحذّر فيها الأمويين من خطر المسوّدة. وشفع الرسالة بالأبيات المشهورة التي أولها:

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون له ضرام

فوقَّع مروان بقوله:

«الحاضر يرى ما لا يرى الغائب، فاحسم الثؤلول[٣]».

فكتب نصر: «الثؤلول قد امتدَّتْ أغصانه، وعظمتْ نكايته».

---

(١) ظهر.

(٢) العقد الفريد ٤/ ٢١٠.

(٣) الخراج والحبة تظهر في الجلد.

فوقع مروان:

«يَداكَ أَوْكتا، وفوكَ نفخَ»[(١)].

٢- توقيعات الولاة

ذكرنا قبل أن التوقيعات بناتُ النجابة، وثمراتُ الثقافة، ونتاج الفصاحة، ولهذا لم يبرعْ فيها إلا الأذكياء الفصحاء من طبقة معاوية بن أبي سفيان، وعمر بن عبد العزيز. ونذكر الآن أن الولاة الذين أحسنوا التوقيعَ كانوا أنداد هؤلاء الخلفاء في الذكاء والفصاحة، وربَّما بزّوهم فيهما وفي الخطابة، حتى عُدُّوا في أعلام النثر العربي، ومنهم زياد ابن أبيه، والحجاج بن يوسف.

أ) توقيعات زياد ابن أبيه[(٢)]

مرَّ بك أنَّ خطبة زياد البتراء عُدَّت، على ما أصابها من بَتْرٍ، إحدى الخطب الجياد في العصر الأمويّ، إن لم تكن أجودَ الخطب على الإطلاق. ومرّ بك كذلك أن المؤرخين أجمعوا على أن زياداً كان رابعَ أربعة الدهاة، وأن دهاءَه - والقول للأصمعي - كان لكلِّ كبيرة وصغيرة، وأن الشعبيَّ شهد له بأنه أخطبُ العرب. ونضيف إلى ما سبق أنه أُثِرت عنه أقوال سائرة تناقلتها الألسنة، ومن أقواله توقيعاتٌ ذيَّل بها رسائلَ القادة والسياسيين من الخاصَّة، ورقاعَ المتظلِّمين وذوي الحاجات من العامَّة، وأجاد فيها كلِّها أو جلِّها إجادةً بوَّأته مكانةً مرموقة في الفصاحة والبيان، كما بوَّأته مكانة مرموقة في السياسة والإمارة.

- كتبت إليه عائشة في وَصَاةٍ برجل، فوقع في كتابها:

  «هو بين أبويه».

- وردَّ على رسالة أرسلها نائبهُ على خراسان - وكان قد خالفه في أمر من أمور الإدارة والسياسة - فقال:

  «اشترِ بعضَ دينك ببعضٍ، وإلَّا ذهب كلُّه».

- وسخر في إحدى تعليقاته من عامل له على البصرة ثار به الخوارج، فقال في توقيعةٍ له:

---

(١) مثل يضرب لمن يجني على نفسه الهلاك، أوكتا: ربطتا. انظر مجمع الأمثال ٢/ ٤١٤.

(٢) العقد الفريد٤/ ٢١٧.

«النساءُ تحاربهم دونك».

- وشكا إليه متظلِّمٌ عقوقَ ابنه فردَّ عليه بتوقيعة ساخرة، فقال:

«ربَّما كان عقوقُ الولد من سوء تأديب الوالد».

- وأسخط عاملٌ من عماله قوماً، فرفعوا فيه إلى زياد رفيعةً، أي شكوى، فأشكاهم بقوله:

«من أماله الباطلُ قوَّمه الحقُّ».

- وفي توقيعة من توقيعاته أمر عامله على الكوفة أن يترفَّق بالأبرار، وأن يجعل الشهامة شفيع الشهم، فقال:

«أمِط[١] الحدود[٢] عن ذوي المروءات».

ب) توقيعات الحجَّاج بن يوسف[٣]

تستطيع أن تعد الحجاج من أنداد زياد في التوقيعات كما عددته من أنداده في الخُطب، فكلاهما فصيح نشأ في الحجاز، وكلاهما ثقف اللغة من ثقيف، وكلاهما صقل بيانه بالكتاب والسنة، وقبس منهما الإيجاز وجوامع الكلم، وردد أصداءهما في توقيعاته الدقيقة المحكمة.

- ذيَّل الحجاج رسالة من رسائل قائده المظفر قتيبة بن مسلم بتوقيعة تدل على إيمانه بكتاب الله، وحرصه على قراءته وإقرائه في الحرب والسلم على السواء، وهي قوله لقتيبة:

«خذ عسكرك بقراءة القرآن، فإنه أمنع من حصونك».

- ووقَّع في رقعة رفعها إليه سجين أعلن التوبة بجملة من سورة التوبة، وهي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ [التوبة: ٩/ ٩١].

- وكان الحجاج، على حزمه وبطشه وأخذه المسيءَ بالشدة، موطَّأ الكنف للضعفاء، لَيِّنَ الجانب للفقراء. أتاه كتابٌ من قتيبةَ بن مسلم يشكو فيه كثرة الجراد، وذهاب الغلَّات، وما حلَّ بالناس من القحط، فوقَّع:

---

(١) نحِّ وأبعد.

(٢) العقوبات.

(٣) العقد الفريد ٤/ ٢١٧-٢١٨.

«إذا أزِفَ خراجُك فانظْر لرعيتك في مصالحها. فبَيْتُ المال أشدُّ اضطلاعاً بذلك من الأرملة واليتيم وذي العَيْلة».

- واستشاره قتيبة في عبور النهر، فكان على سلامة الجيش أحرص منه على إحراز النصر، ومهر كتاب قتيبة بالنصيحة التالية:

«لا تخاطر بالمسلمين حتى تعرف موضع قدمك، ومرمى سهامك».

د- سمات التوقيعات

لم يُولِ أكثر الدارسين التوقيعاتِ ما تستحقُّه من درس وتحليل، كأنَّهم قدُّوا عنايتَهم بها على قدِّ مبانيها، ولم يقدُّوها على قدِّ معانيها، فجاءتْ تعليقاتهم عليها توقيعاتٍ نقديةً على توقيعات أدبية، فلم تنقع غلة. ولو أنصفوها لجمعوها وصنَّفوها، وتدبَّروها وعرَّفوها، وأفردوها في كتب خاصّة، تشبه كتب الأمثال. إن إغفالهم ما أغفلوا حملنا على النظر فيها للوقوف على سماتها الفكرية ومراميها السياسية، وأبعادها الاجتماعية، وقَسَماتها الفنية، لعلَّنا بنظرنا الحسير أن نقعَ فيها على خصائص تميزها من أجناسِ الأدب الأخرى، وتضعها في المكان الذي يليق بمكانتها الأدبية والفنية.

١- عمق الأفكار

قد يقال: كيف توصف التوقيعاتُ بعمق الأفكار؟ وهي ليست أكثرَ من تعليقات مُجْملة، اقتضَتْها رسائلُ مفصلة، أو خواطر مرتجلة، أومضَتْ في أذهان الخلفاء والأمراء إيماضاً خاطفاً، أو ذيول أُلْحِقت بأصول. والمرتجلُ لا يوصف بعمق، والفرعُ يستمدُّ عمقَه أو ضحالته من أصله. فهي لا تعد في طِوال الرسائل، ولا في قِصار الحِكَم، ولا في سوائر الأمثال.

الردُّ على هذا القول أنَّ صانعي التوقيعات بعد أن يقفوا على ما يتلقَّوْن من رسائل، يُديرون أفكار الرسائل في أذهانهم، ويستخلصون أهمَّ ما فيها، ويعرضونه على ما يدورُ في عقولهم من آراء وردود، ثم يمخضون هذه الردودَ المتخلِّجة في نفوسهم مَخْضَ الأعرابية اللبنَ، لتستخرج منه الزُّبْدَ وترمي الزَّبَدَ، فَيُفْضي المخض إلى الردّ، فإذا الردُّ جملةٌ مركزة مكثفة، أو كما يُقال في العصر

الحديث «كاملة الدسم». وهذه الجملة الدسمة قد تختصر معركةً عسكرية، أو فكرةً سياسية، أو حكماً من أحكام الشريعة.

ومن هذا الضرب ما ذيل به الحجَّاج رسالةً أتته من قتيبة بن مسلم يستشيره في محاصرة مدينتي «كَسَّ ونَسَفَ». قال الحجاج[١]: «كِسْ بكسَّ، وانسفْ نسَفَ، وإيَّاك والتحويط». ومنه توقيعة بعث بها يزيد بن عبد الملك إلى والي المدينة، وهي كلمتان تنقدان سياسته وتقُيلانه من عمله[٢]: «عثرْتَ، فاستقلْ» وتوقيعة ذيَّل بها هشام بن عبد الملك رقعة سجين يتظلَّم[٣]: «نزل بحدّك الكتاب».

٢- تعبيرها عن سياسة الدولة وأحوال المجتمع

لَمَّا كانت الكثرةُ الكاثرة من التوقيعات في العصر الأموي صادرةً عن الخلفاء والأمراء، فإنها انطوت على مضمون سياسي، ينمُّ على مناهج الدولة في إدارة البلاد. وعلى علاقة الرعاة بالرعايا. وهذه المناهج، مع أنها كانت تعتمد على الكتاب والسنة، كانت تتأثَّر بشخصيات الخلفاء والأمراء. وتتخلَّق بأخلاقهم. فقد رأيت كيف تجلّى حِلْمُ معاوية في معاملة ابن عباس. حينما أمر زياداً أن يكرمه، لأن أباه العبَّاسَ كان في منزلة أبي سفيان. ورأيْت بعد ذلك كيف حملت الرعونةُ ولدَه يزيد على أن يشمت بأهل المدينة وأن يتهمهم بالفسوق، وجلُّهم من جِلَّة الصحابة والتابعين.

ولا يبالغُ مَنْ يزعمُ أنَّ التوقيعات، على إيجازها الشديد، ترسمُ خطَّاً بيانيّاً، يقرأُ فيه الباحث تطورَ السياسة الداخلية التي كان كلُّ خليفة يتبعها، أو يأمر الولاة باتباعها في النواحي الإدارية والمالية، من معاملة الفلاحين، إلى جباية الخراج وإنفاقه وفق ما يعتقد أنه يرقى بالدولة والأمة.

فالوليدُ بن عبد الملك الذي عُرِف بالإمعان في الفتوح، والاتِّساع في العمران كان في حاجة إلى المال، يجمعُه من كلِّ وجه. ويُنفقه في تجييش

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٧٩، وكسّ بفتح الكاف وكسرها وبالسين والشين مدينة قرب سمرقند، ونسف مدينة على مرحلتين من مدينة كس، الكس: الدق الشديد. والنسف: الاستئصال، والتحويط: أراد الإحاطة بالمدينة وحصارها ومداورة أهلها.

(٢) العقد الفريد ٤/ ٢٠٩.

(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٠٨.

الجيوش. وتشييد الصروح. تلقّى الوليد رسالة بعث بها إليه الحجّاج، يلومه فيها على مخالفته سياسةَ أبيه عبد الملك، فذيَّلها بالتعليقة التالية: «لأجمعنَّ المالَ جَمْعَ مَنْ يعيشُ أبداً، ولأفرِّقنَّه تفريق مَنْ يموت غَداً»[١].

فإذا انتقلتَ من توقيعات الوليد إلى توقيعات عمر بن عبد العزيز انفتح أمامك أفُق من السياسة جديد، تُحِسُّ، وأنت تلجُه أن كلام عمر ينقلك من الدنيا إلى برزخ يفضي بك إلى الآخرة. فالسياسةُ الرسميةُ في عهده لم تكن تقيم وزناً للتطاول في البنيان، بل تنصح بالتزام الورع لمن تخامره هذه الرغبة في الترف. لقد آمر أحدُ الولاة عمر بن عبد العزيز في بناء حاضرته، فأمره عمر بأن يبني المدينة بالدين والمُثلُ والخُلق، قبل أن يُدير حولها الأسوار، ويرفَع فوقها الأبراج فقال في الردّ على رسالته:

«حصّنها ونَفْسَك بتقوى الله»[٢]، وسأله عاملٌ آخر أن يعطيه أرضاً يبنيها، فقال في الردّ: «كُنْ من الموت على حذر»[٣].

أما توقيعاتُ هشام بن عبد الملك فيتراءى لك أنها تعبِّر عن سياسة معتدلة، تنطوي على نوع من التوازن بين حِلم معاوية، ورعونة يزيد، أو بَيْن دينِ عمر ودنيا الوليد. وربَّما ظهر هذا التوازن في توقيعة واحدة، كتلك التي ذيَّل بها هشامٌ رسالةً لسهل بن سيّار، وخوَّفه فيها رقيبين: أميرَ المؤمنين في الدنيا، وأحكَمَ الحاكمين في الآخرة:

«خفِ الله وإمامك، فإنَّه يأخُذك عند أوَّل زلَّة»[٤].

ولم تغفل التوقيعاتُ - ولا سيَّما التوقيعاتُ التي أصدرها الولاةُ- عن أحوال الناس، ومشكلاتهم الاجتماعية، إذ صوَّرتْ بلمساتها الرهيفة، وخطوطها وظلالها المرتجلة ملامحَ معبرةً من الغنى والفقر، والأمل واليأس، والجريمة والعقاب، وحاولتْ أن تُنصف المظلوم، وتُشكي الشاكيَ، وتلتزم الحدودَ. وهذه الطائفةُ من التوقيعات تُشير إلى أن الدولة الأموية لم تكن معزولة

(١) العقد الفريد ٤/ ٢٠٨.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٠٨.
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٠٨.
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٠٩.

عن الشعب، ولم تخالفْ عن الطابع الديني للحكم، وخاصَّة في عهد عمر بن عبد العزيز.

كان عمرُ أوسعَ الخلفاء الأمويين صَدْراً، وأسرعَهم إلى الخير استجابةً، وأحرصَهم على تحسُّس مشاعر الأمَّة، فأحبَّه الناس، وشكوْا إليه بثَّهم برقاع مكتوبة. ذيَّل رقعة محبوس يتظلَّمُ بقوله: «تُبْ تُطْلَقْ»[١] وردَّ على امرأة تستعطفه على زوجها السجين بقوله:

«الحقُّ حبسه»[٢].

وكتب في رقعة رفعها إليه رجلٌ يتذمَّر من حليلته الصخَّابة بقوله: «أنتما في الحقّ سيان»[٣].

أمّا الولاة فقد كانوا ألصقَ بالرعيةِ من الخلفاء، إلا أنَّهم كانوا أشدَّ عليها من عمر، إذْ كانوا على الحزم وإنفاذِ الحدود أحرصَ منهم على الحِلم والتماس المعاذير، لكنَّ ما صدر عنهم من توقيعات لا ينمُّ على عَسْف، ولا يُخالفَ عن حدٍّ، فهم ومَنْ ولَّوْهم كانوا سواءً في الحكم بما أنزلَ الله في الأعمِّ الأغلبِ.

ردَّ زياد بن أبيه على سارق تظلَّم بقوله:

«القطع جزاؤك»[٤].

وعلى امرأة حبس زوجها بقوله: «حكمُه إلى الله»[٥].

وأفتى في جريمة قوم نَقَبوا - والنَّقْبُ خَرْقُ الجدار للسرقة- بقوله:

«تُنْقَبُ ظهورهم»[٦].

وفي جريمة نبَّاش - والنباشُ من يحفر قبر الميت ليسرق كفنه- بقوله:

«يُدْفن حيَّاً في قبره»[٧].

---

(١) العقد الفريد ٤/ ٢٠٩.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٠٩.
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٠٩.
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢١٧.
(٥) المصدر السابق ٤/ ٢١٧.
(٦) المصدر السابق ٤/ ٢١٧.
(٧) المصدر السابق ٤/ ٢١٧.

فزيادٌ كما ترى التزم الحدود في بعض ما أفتى به، وجاوزها في بعض فليس من الحدود نقب الظهور، ودفن الأحياء في القبور.

٣- تأثرها بالتراث العربي والفكر الإسلامي

تأثَّرت التوقيعاتُ بالتراث العربيّ، فاقتبستْ من قصصه وأخباره، وأقواله وأمثاله، وساقت هذه النصوص القديمةَ مساق النُّصح والوعظ. وربّما كانت الأمثالُ أخصب المراتع التي انتجعتها التوقيعات، لأن الطائفتين أخواتٌ في الدلالات، وتوائمُ في الإيجاز. فليس من المستغرب إذن أن يستعير الموقِّعون الأمويون أمثالاً، تترجمُ مقاصدهم، على النحو الذي مرَّ بك في قول معاوية بن أبي سفيان: عِشْ رجباً تر عجباً، وفي قول مروان بن محمد: يداك أوكتا وفوك نفخ.

وفي الكتاب والسنة ما يبزُّ الأمثالَ في الجمال، ويتميَّزُ منها بإيجاز يرقى إلى الإعجاز، وبإصابة المعنى، وإجادة المبنى، وإحكام الأحكام، وتحديد الحدود، والفُتيا والتشريع. ولَمَّا كان القسم الأعظم من التوقيعات على صلة وثيقة بالحلال والحرام، والمشروع والممنوع، فقد اقتبس الموقعون توقيعات كثيرة من آي الذكر الحكيم، والحديث النبوي الشريف، بعضُها بالمعنى، وبعضُها باللفظ والنصّ. وإذا كان عمر بن عبد العزيز الذي ذكرنا ثلاثاً من توقيعاته القرآنية أحفلَ الموقّعين بهذا الضرب من الاقتباس، فإنّ بين الخلفاء والأمراء من سبقوه أو لحقوه في هذا الضرب من التوقيع البديع؛ فسليمان بن عبد الملك في ردّه على رسالة هدَّده بها قتيبةُ بن مسلم جعل الردَّ آية[1]، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢٠]. ويزيدُ بن عبد الملك كتب في رقعة رفعها إليه متظلِّم[2]: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٢٧]. وهشامُ بن عبد الملك ردَّ على عامل من عماله رفع إليه شكوى الناس من قلة المطر، بقوله[3]: «مُرهُم بالاستغفار» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم

(١) العقد الفريد ٤/ ٢٠٨.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٠٩.
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢١٠.

مِّدۡرَارٗا﴾ [نوح: ٧١/ ١٠-١١]. وزياد ابن أبيه(١) كتب في رقعة متظلِّم قولَه عزَّ وجلّ: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٌۚ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٥] وتغمَّد جريرة متظلِّم بالعفو بعد أن أعلن توبته محتكماً إلى الحديث الشريف: «التائبُ من الذنب كمنْ لا ذنبَ له».

٤- هل للتوقيعات سمات فنية؟

يشقُّ على الدارس أن يسمَ التوقيعات بسمات فنية تُميزها من الحِكم والأمثال والرقائق والأقوال السائرة لأسباب:

أولُها أن قسماً كبيراً منها كلامٌ مقتبس، أخذه مقتبسوه من الأمثال والشعر والقرآن والحديث. فكيف توسمُ العاريةُ بسمات ليست لها، ولا لمن استعارها؟

والثاني أن قسماً ممَّا لم يُقْتَبس يطغى عليه الأسلوبُ العلمي أو التعليمي، أو التوجيه التربوي، أو التشريع الفقهي، وفي هذه الأضرب من الكلام يتعمَّد المتكلمون التوضيح لا الإمتاع.

والثالث أن الإيجاز المفرط في التوقيع فوَّتَ على أصحاب التوقيعات أن يصوّروا، وأن يلوِّنوا، وأن يحسِّنوا كلامهم بمحسنات البديع. وكيف يتأتى لهم أن يزيّنوا ويحسِّنوا، وأن يوقِّعوا ويسجِّعوا في نصوص لا يزيدُ بعضُها على جملة واحدة كقول زياد ابن أبيه تعليقاً على رقعةٍ، رفعها إليه متظلِّم: «أنا معك». وربّما جُعلت التوقيعةُ كلمةً من أربعة أحرف. كقول زياد في التعليق على رقعة أخرى، رفعها إليه متظلِّم آخر: «كُفيت».

إن كلَّ ما يمكنُ أن يقال في هذا المجال لا يزيدُ عمَّا وردَ في تعريف التوقيعات من إشارة إلى الصياغة المركَّزة على الرغم من الارتجال السريع، ومن قدِّ اللفظ على قدِّ المعنى، ومن رشاقةٍ وحلاوة ودقةٍ أتاحت لها السيرورة، والرسوخ في الذاكرة. فمن ابتغى وراءَ ذلك، فقد انتجعَ الجذْبَ، وورد الضحلَ، وعاد ممَّا ارتاد خاويَ الوفاض.

(١) العقد الفريد ٤/ ٢١٧.